سبعة العربي ودمتها !

مقالب للبيع..

د. سليمان العطار

نحن بدلا من تبادل المصالح في وضوح (انطلاقا من العقد الاجتماعي الذي يربط كل أفراد المجتمع داخل شبكات متشابكة من المصالح) نتبادل شيئا آخر اسمه «المقالب»! لقد عادت زوجة البواب ومعها صرّة من حرّ المصاغ - كما قالت لزوجها - نظير اسورتها فقط. فزع البواب لأنه وضع في إسورة زوجته تحويشة العمر لكنه عندما نظر إلى بريق كوم الذهب في الصرة انفرجت أساريره. قال لزوجته لاهثا غير مصدق: «أنت تحملين كنزا، احكى لى كيف حدث هذا؟» انطلقت الزوجة تحكى قصة الصفقة المذهلة: «قابلت في السوق إمرأة تبكى وهي جالسة على الرصيف. استفسرت عن سر بكائها فقالت إن زوجها قرر أخذ مصاغها منها ليبيعه ويشتري به مخدرات فهربت من البيت بالمصاغ وهي تخشى العودة. حاولت اقناعها بأن تخبىء المصاغ، فقالت انه كثير وكله كرادين وعقود ضخمة وحتما سيعرف زوجها مكانها. وبعد أخذ ورد اقترحت أن أبادلها أسورتي بمصاغها لسهولة اخفائها. وافقت في الحال وتركت المرأة البلهاء وأنا أجرى حتى لا ترجع في كلامها أثنى زوجها على ذكائها وسرعة تصرفها. قرروا بيع المصاغ فورا حتى لا تعود المرأة وتتهمهم بسرقته. قال الصائغ: «بيعوا هذا الصفيح في سوق الحديد الخردة» ادرك المساكين المقلب! ولولت المرأة وأغمى على زوجها.

ونفس الحادث يتكرر مئات المرات يوميا في ميدانين كبيرين بالقاهرة «ميدان العتبة وباب الحديد» فهناك من يعرض عليك ساعة ذهب بخمسة جنيهات لأنهم سرقوا نقوده ويحتاج إلى نقود للسفر إلى قريته البعيدة. تشترى الساعة سعيدا وعندما تعود إلى البيت تكتشف أنها ساعة مزيفة «لعبة أطفال»، وإذا لم تكن مزيفة تجد من يمسك بتلابيبك بعد خطوتين بتهمة سرقة ساعته الذهبية! وهناك بالذات في هذين الميدانين من يبيع التزام أو بعض ساعات الأبراج أو نافورة واستطاع أحدهم مرة أن يبيع الميدان برمته إلى أحد أعيان الريف بعد أن شاهد حافظة نقوده المنتفخة!.

إن كثيرا منا يحكي هذه الأشياء على إنها طرف بديعة وينسج على منوالها نسبة عالية من معجم النكات العربية وإليكم واحدة «اشترى قرويان سيارتين، بالصدفة كان موتورهما من الخلف. توقفا في الطريق إلى قريتهم لفحص السيارات في سعادة. فتح أحدهما حقيبة السيارة الأمامية فصاح مفزوعا لزميله (الذي كان يفتح حقيبة سيارته الخلفية): «لقد ضحكوا علىّ حيث باعوا لى سيارة بدون موتور». أجاب زميله: «لا تحزن فقد ضحكت عليهم وأخذت منهم موتور احتياطي يمكنك استعماله». أسوق هذه النكتة لتفسير ظاهرة استبدال المصاغ وبيع الممتلكات العامة مثل ميدان العتبة وباب الحديد أو ساعة ذهب مزيفة أو ذهب حقيقي ثم اتهام شاريها بسرقتها لأن هذه الأشياء ليست إلا تجليات لظاهرة اجتماعية في السلوك: (ضحكوا على، وضحكت عليهم). إن كل ألوان التعامل تقوم على فقدان الثقة المتبادلة لأن كل طرف في التعامل يريد في حزم أن يضحك على الطرف الآخر حتى في اللقاءات العابرة التى لا يكون فيها تعامل بين الطرفين فكلاهما يحرص من الآخر «ويشترى منه ولا يبيع له» أي يحاول أن

يستمع إليه ليعثر من كلامه على نقطة ضعف يستخدمها «ليضحك عليه» في التعامل التالي بينما هو صامت أو يتحدث بقدر حتى «لا يقع في الكلام» فيقع محدثه منه على نقطة ضعف مماثلة يقتنصه منها ليضحك عليه. هذا الحرص المتبادل هو محاولة عدوانية متبادلة بين أفراد المجتمع تقوم على «صناعة المقلب».

وكلمة مقلب اصطلاح لغوي عربي فريد يعني خداع (أحد الناس) في موقف بحيث تخرج الأمور عكس توقعه الصحيح فيوضع في موقف لا يحسد عليه حتى يبدو مثل الأبله، فيضحك عليه الآخرون. إن استعمالاتنا اللغوية تفضح سلوكنا. فقد نشأنا وجميع من حولنا يحذرنا في كل تعامل «أوعى حد يضحك عليك» أو يشجعنا «برافو! لقد ضحكت عليهم» كما أننا نسمع في وصف أي علاقة حب «الولد ضاحك على عقلها، البنت ضاحكة على عقله». وأحيانا تحل محل المادة «ضحك» مادة لغوية أخرى «أكل» ومثلنا يقول «اتغدي بيه قبل ما يتعش بك». وهكذا يصير وعينا قائما على أنه من واجباتنا المقدسة أكل الآخرين - حتى لا يأكلونا - والضحك عليهم - فلا يضحكوا علينا - بملء حياتهم بالمقالب. إن زوجة البواب الساذجة أرادت أن تحتال على المرأة المحتالة مع سبق الاصرار والترصد فوقعت هي في المقلب «من حفر لأخيه المؤمن حفرة وقع فيها»، هكذا نردد هذا الحديث بعد الوقوع في الحفر التي حفرناها للآخرين مما يدل على نقص ايماننا، ويدخل في ذلك قول أحدهم «لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين» عندما يذهب لإجراء معاملة مع شخص آخر ضحك عليه في مرة سابقة. وترديد هذا الحديث الشريف لا يعني عند صاحبه تمثل مفهومه السامي حول الايمان وانما يعنى اتخاذ العدة والحذر للضحك على من ضحك عليه ومباغتته بأحد المقالب. إن الأخذ بالثأر نفسه وجرائم الشرف تدخل في إطار هذه التركيبة العقلية التي يفرزها الهروب من ذاتنا بالعدوان على ذوات الآخر، بل ويدخل في إطارها جرائم العدوان على المال العام والرشوة والتزييف.. الخ.

نحن تكثر لدينا كلمات تطلق على ضحية هذا السلوك: (أبله - عبيط - طيب - حمار - مغفل - مستغفل - مضحوك عليه - ملعوب عليه - أبو ريالة - مسكوك على قفاه - دُهُل... الخ) بالاضافة إلى أن كل قرية وشارع بل وبيت له مصطلحاته الخاصة في تسمية صاحب هذا الشرف! وعندما كنا صغارا كانت توجد لعبة أطفال اسمها التعليم (من العلامة وليس العلم). حيث نحاول طوال اليوم مع زملاء المدرسة (أو أطفال البيت الآخرين) أن نخلق مقالب كل منا للآخر وكلما نجح مقلب ضد زميل نقول له (عليك واحد). ويبدأ العداد مثل مباريات كرة السلة والمهزوم اسمه (مُعلم عليه) وكأنما الضحك على الآخر يترك على وجهه علامة. وفي بحث ميداني لي مع فئة «المشاغبين والفتوات» أجمعوا على أنه من أصول المهنة أنهم إذا ضربوا أحد الضحايا فينبغي أن يحدثوا له جرحاً في مكان ظاهر عندما يندمل يترك علامة دائمة فلا ترتفع رأس الضحية أبدا.

إن نتيجة هذا السلوك تفرز الفتوة (الفتى) والشاطر حسن في الحكاية الشعبية والفهلوى والمحتال والذين يطلون الهواء بالألوان الزيتية والحواة الذين يخرجون الثعابين من جحورها مستعملين مجموعة من الثعابين المحتالة يخفونها في ثيابهم. أخطر من ذلك لا يمكن أن يقوم اقتصاد قوى ولا سياسة ناجحة ولا مجتمع متماسك من أفراد كل منهم يريد أن يأكل الآخر ويضحك عليه. أن أهل المدينة يتربصون بأهل القرية أو البادية والعكس صحيح وكل واحد يظن أنه الذكي الوحيد أو الفنان الأوحد هو الاحسن فيما هو فيه. النتيجة قانون الغاب يسود تحت سطح كل القوانين الظاهرة والنظام المقام واحساس مستمر بعدم الأمن حتى مع أقرب الناس إلينا.

وأدوات الضحك على الآخرين تتفشى في كل شيء فهي الغش والكذب ورسم المقالب واستخدام الحيلة والاحتيال بل والسحر والاستغفال ومراقبة الآخرين كما يراقبوننا لاكتشاف نقط الضعف التي تتماثل في الجميع وتنطبق على بعضها انطباق الأشكال الهندسية وبالتالي يصير الصائد صيدا والصيد صائدا والمنتصر مهزوما والمهزوم منتصرا ويتم تدمير العقد الاجتماعي وتفتيت تماسكه وتضطر الدولة للاسراف في اصدار القوانين لمواجهة الغش والاحتيال ضدها وضد الأفراد ومع ذلك فالاسراف في القوانين يساعد على مزيد من الاحتيال والغش لأن الناس تدرك أن القانون حمار ينبغي ركوبه والضحك عليه.

فليس صدفة أن يكون أول فن قصصي عربي من ابداع الأفراد هو (المقامة) التي اتخذت بطلا لها (شخص محتال) يضحك على الآخرين بشتى الحيل. وليس تفاهة من مؤلفي الأغاني أن يكثر فيها وصف المحبوب بالخيانة والكذب والهجر. باختصار الحب مقلب. أما باقي فنوننا الشعبية مثل النكتة والمثل والسامر والأغنية الشعبية فقد أسرفت في حديث المغفلين، ولم يفلت بطل السيرة الشعبية من ممارسة الغش والاحتيال للانتصار على أعدائه، ولا أعفى سلوكنا اليوم من ممارسة دور بطل المسيرة الشعبية ضد أعدائنا مما يتيح لهم دائما الضحك علينا لانهم لهم نقطة ضعف لا تماثل نقاط ضعفنا ولا تنطبق عليها هندسيا، فنضربهم في نقاط قوتهم وتضيع من عيوننا رؤية نقاط ضعفهم.

عواقب هذا السلوك الفهلوى على المستوى الفردي والقومي لا حدود لأضرارها: إنها تهشيم للبناء الأسري والاجتماعي ومسمار في نعش أي انتعاش اقتصادي وعدم قدرة على موضوعية الحكم على الأشياء وفهم ما يحدث على مستوى التعامل الدولي لأن عدونا لا يضحك علينا لكنه يمارس عدوانه فقط من منطلق مصالحه. فمتى نتبادل المصالح ونعى بنبل اشتراك البشر في صنع هذا التبادل بوضوح شديد لا يعرف المقالب أو الفهلوة؟ إنه سؤال من عدة أسئلة لن يكون لها إجابة قبل الوعى بكل انماط سلوكنا والتركيبة العقلية التي تقف وراءها تمهيدا للوعى بضرورة تعديل هذه التركيبة بمواجهة الذات وعدم الفرار منها بالضحك على الآخرين الذي هو في الحقيقة ليس إلا ضحكا على أنفسنا، بامعان الهروب من حقيقتها الموضوعية واعتبارها ذاتا مصونة لا تمس فتبادر دائما بالعدوان على كل من يقترب منها، فتستقبل الضربات من حيث كانت تريد توجيهها!

ومن الطريف أن أسوق بعض النوادر التي قد تحمل عنوان «ضحك عليّ وضحكن عليه» في نهاية هذا اللقاء.

● قروى يضحك على مدني:

بالبرود المعتاد للحلاق أخذ يقص شعر قروي مع السخرية منه ومن أهل قريته حتى جف ريق القروى فطلب من الحلاق كوب ماء بارد. أحضر الحلاق الماء قائلا للمسكين: «اشرب ماء مثلج لا يحلم فلاح مثلك بشربه» فرد القروي: «أبدا الماء البارد هو الشيء الوحيد الذي تتمتع به قريتي منذ زمن جدي

العمدة» سأله الحلاق: «وكيف ذلك» أجاب القروي: «لأن جدى الله يرحمه قتل واحد حلاق والقى جثته في الترعة ومن يومها تثلج ماؤها وصار أبرد من مائك المثلج!».

● مدني يضحك على قرويين:

ذهب القروي إلى المدينة ووقف مشدوها أمام ساعة جميلة فوق نصب في أحد الميادين. رآه مدني محتال فوقف يحادثه:

- عاجبك الساعة.
- جدا.
- تحب تشتريها.
- دى غالية. أظن أن ثمنها أكثر من ألف جنيه.
- أنا أبيعها لك بمائة جنيه فقط.

وافق القروي ودفع مائة جنيه للمدني الذي طلب منه الانتظار حتى يذهب ويحضر سلّما لينزل الساعة ولم يعد. فراح القروي إلى قريته حزينا وشكا لأخيه الأكبر فوعده هذا بالذهاب إلى المدينة للثأر. وذهب ووقف أمام الساعة فظهر نفس المدنى ودار بينهما نفس الحوار إلا أن الأخ الأكبر للقروى قال له «سأدفع خمسين جنيه فقط». وافق المدنى واستأذن لاحضار السلم كالعادة وأمام احساس الأخ الأكبر بالنصر لشرائها بنصف الثمن. رفض هذا أن يأذن للمدني بالذهاب وقال له بلهجة آمرة:

- أنت عليك بالبقاء بجوار الساعة وسأذهب أنا لاحضار السلم!.

● جندي يضحك على قروي:

في استعراض عسكري وقف القروي مذهولا أمام الطائرات وأخذ في عدّها فقرر جندي أن يضحك عليه فأخذ يتلاعب به وقال له: «أنت مقبوض عليك بتهمة عد الطيارات أو تدفع الغرامة: جنيه واحد مقابل كل طيارة!».

قال القروي: «خذ خمسة جنيهات نظير الخمس طائرات التى عددتها».

أخذ الجندي النقود وانصرف فجاء قروي آخر قد شهد ما حدث قائلا للأول: «لقد ضحك عليك الجندي وقبض ضعف الغرامة!» فرد عليه: «أبدا، أنا الذي ضحكت عليه لأنني عددت عشرين طائرة وحسبت له خمس طائرات فقط».

● عربي يضحك على العالم:

اجتمع فرنسي وايراني وياباني وأمريكي وعربي كل منهم يذكر حسنات بلده أمام لجنة تحكيم:

قال الفرنسي: أحسن مالدينا المرأة الفرنسية بذوقها وثقافتها.

وقال الايراني: أحسن مالدينا السجاد العجمي بفنه.

وقال الياباني: أحسن ما عندنا الحدائق اليابانية بجمال تنسيقها.

وقال الأمريكي: أحسن ما عندنا وكالة المخابرات المركزية التى تستطيع أن تعرف أدق الاسرار عن كل ما يحدث في العالم!

وقال العربي: أحسن ما عندنا الرجل العربي حيث يستطيع إغواء المرأة الفرنسية فوق سجادة عجمى في حديقة يابانية دون علم وكالة المخابرات المركزية!.

والآن نضرب صفحا عن بقية الطرف التى جمعتها حول هذه النقطة من الضعف لكنى في آخر هذا المقال أرسل القارىء إلى محل تجاري ليشتري شيئا أو إلى شريك ليتعامل معه لنرى حجم المساومات بين الطرفين وكل منهما يبذل جهده ليضحك على الآخر التاجر يكتب سعر سلعته مضاعفا ليترك لنفسه مساحة داخل المساومة والمشتري يحاول أن يصل الى نصف الثمن والضائع هو الجهد والثقة والوقت. لكن دارس الظاهرة يمكنه تسجيل عشرات النكات المتكررة يوميا لمن يريد أن يضحك على من يضحكون على انفسهم (!!). ■■

صدى الاسبوع

مجلة أسبوعية سياسية جامعة

دعوة حب ..

لكل من داعبه خياله ذات يوم ان تمتد يده ليمسك بقلم ويخط سطورا يبثها أمنياته واحباطاته .. وآماله لوطنه وأبناء شعبه .. ليقرأ هذه السطور الآخرون .. يتحاورون معها .. ويتعلمون منها ..

لهؤلاء تقدم «صدى الاسبوع» دعوة مفتوحة .. دعوة حب للتعاون والعمل بها .. لبدء الخطوة الأولى في بلاط صاحبة الجلالة .. الصحافة .. مهنة الحب والمتاعب ..

لكل من يرغب رجاء الاتصال بمدير تحرير المجلة على هاتف ٢٩١٢٣٤ .